مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 10/ العدد: 01 (2022)، ص 496- 525

دور الابستمولوجيا في حل مشكلة العلوم الانسانية

The role of epistemology in solving the problem of human sciences

د. نوال بناي[1]، د. غنية زايدي[2]

[1] جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة (الجزائر)

naoual.bennai@univ-dbkm.dz

[2] جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة (الجزائر)

g.zaidi@univ-dbkm.dz

تاريخ الاستلام: 2022/01/10 تاريخ القبول: 2022/01/13 تاريخ النشر:2022/01/23

ملخص:

تهدف هذه الدراسة للتعرف على دور الابستمولوجيا في حل مشكلة العلوم الانسانية، باعتبارها كنتيجة لما بدأت به المجتمعات الحديثة كشف قضايا نفسية واجتماعية جديدة ارتبطت بتطورها السريع، ولما كان علم الاجتماع وعلم النفس هما القطبان اللذان يَحْصُران كل موضوعات أو فروع العلوم الإنسانية التجريبية في ترددا‌تها بين الجَمْعِيِّ العامِّ والفرْديِّ الخاصِّ، فإننا سنُصَوِّب عليهما الأنظار ونُولِيهما عناية خاصة، هكذا أصبحت هذه العلوم تسعى إلى تحويل الإنسان إلى ظاهرة قابلة للدراسة العلمية الموضوعية، إلا أن تميز الإنسان واختلافه عن الظواهر الطبيعة جعل العلوم الإنسانية تعرف مشاكل إبستيمولوجيا من نوع خاص، ومن ثم بدأ العلماء يتساءلون حول مدى قدرة هذه العلوم على بلوغ دقة العلوم الطبيعية.

كلمات مفتاحية: الابستمولوجيا، العلوم الانسانية، حل المشكلة، الابستمولوجيا المعرفية، المجال.

Abstract:

This study aims to identify the role of epistemology in solving the problem of human sciences, as a result of what modern societies began to discover new psychological and social issues associated with their rapid development, and since sociology and psychology are the two poles that confine all subjects or branches of experimental humanities to their frequencies among the collective The general and the individual, we will focus on them and pay special attention to them, this is how these sciences seek to transform man into a phenomenon amenable to objective scientific study. However, the distinction of man and his difference from natural phenomena made the human sciences know epistemology problems of a special kind, and then scientists began to wonder about the extent of the ability of these sciences to reach the accuracy of the natural sciences.

Keywords: Epistemology; human sciences; problem solving; cognitive epistemology; field.

المؤلف المرسل: د. نوال بناي.

1. مقدمة:

لقد اختلفت الآراء والدراسات في حيثيات مشكلة العلوم الإنسانية، لتَجول الصعوبات المحيطة بها، بين عدة خصائص تتميز بها الظاهرة الإنسانية، قبيل صعوبة التكميم واستخدام ألفاظ كيفية وثمة صعوبة صياغة قوانين دقيقة، وأن الباحث جزء لا يتجزأ من الظاهرة التي يبحث فيها، فلا بد أن يشعر اتجاهها بميول وأهواء معينة، تفرضها الأيديولوجية السياسية والاجتماعية والبيئة الثقافية والبيئة الحضارية التي ينتمي إليها، فتؤدي به إلى إضفاء الإسقاطات

التقييمية أو الأحكام على مادة بحثه، ما يناقض طبيعة العلم الذي يأبى تدخل عنصر القيمة، وهو عنصر يصعب استئصاله من البحوث الإنسانية، فثمة قيَم الباحث التي تؤثر على أحكامه، بل ومجرد رصده الوقائع، هذا فضلا عن تعقد الظواهر الإنسانية والاجتماعية بصورة تجعلها بخلاف الظواهر الطبيعية متعددة الملامح والأبعاد والخصائص، ما يصيب محاولات وصفها بالقصور الشديد.

القابلية للاختبار والتكذيب التجريبي، والمنهج الفرضي الاستنباطي، هما التمثيل المنطقي المنهجي للأبستمولوجيا العلمية المعاصرة، والتي تَخْرج فعلًا من مشكلة العلوم الإنسانية، من حيث إنه يأتي في سياقها التقارب بين العلوم الطبيعية والإنسانية، وتشارك المشاكل، وتلاقي الطرق والمنعطفات، فيمكن أصلا حل مشكلة العلوم الإنسانية على ضوء الخاصية المنطقية للعلوم الطبيعية، وطريقتها المنهجية،

وعلى هذا الأساس سوف نتطرق في هذه المداخلة إلى الأبستمولوجيا العلمية والخروج من مشكلة العلوم الإنسانية، وكذا إمكانية حل مشكلة العلوم الإنسانية.

ومن هذا المنطلق جاءت هذه المداخلة للرد على التساؤلات التالية: ماهي الأبستمولوجيا العلمية؟ وكيف يتم الخروج من مشكلة العلوم الإنسانية؟ وكذا إمكانية حل مشكلة العلوم الإنسانية؟

2. مفهوم الإبستمولوجيا

الابستمولوجيا هي الدراسة النقدية لمبادئ العلوم وفروضها ونتائجها بغرض تحديد أصلها المنطقي وبيان قيمتها وحصيلتها الموضوعية " وإذا كان الفرنسيون يميزون بين نظرية المعرفة والابستمولوجيا بمعناها الدقيق فأن الالمان أيضاً يميزون بين نظرية المعرفة والابستمولوجيا وأن كانوا يقصدون بالأبستمولوجيا فلسفة العلوم جميعها ، ومهما كان من أقر هذه الاختلافات التي تنشأ حول تحديد معنى الابستمولوجيا فأننا نعني بها في المقام الاول بيان شروط

المعرفة البشرية وقيمتها وحدودها وموضوعيتها من زاوية تطور العلم المعاصر. (وقيدي، 1980، صفحة 2)

أن مقولة تحديد معنى الابستمولوجيا يرجع الى ارتباطها بعدة أبحاث معرفية تدور حولها، فالأبستمولوجيا ترتبط بنظرية المعرفة كما ترتبط بالمثيودلوجيا وفلسفة العلوم والمنطق ، فهي ترتبط بالمنطق من حيث أنها تدرس شروط المعرفة الصحيحة شأنها في ذلك شأن المنطق ولكن إذا كان المنطق يهتم بصورة الفكر أو بصورة المعرفة فإن الابستمولوجيا تهتم بصورة المعرفة ومادتها حقا. (بلانشيه، 1986، صفحة 7) والابستمولوجيا مرتبطة أيضاً بنظرية المعرفة بمعناها التقليدي من حيث أنها تدرس أمكانية المعرفة، وحدودها وطبيعتها ولكن لا من زاوية الموقف الخاص بل من زاوية التطور العلمي المستمر، وبكلمة واحدة أن الابستمولوجيا هي نظرية علمية في المعرفة تتلون بلون المرحلة التي يجتازها العلم في سياق تطوره ونموه على مر العصور. (ttp://dr-cheikha.logspot.com, 2011)

إذا عرفنا الابستمولوجيا تعريفاً دقيقاً نقول إنها تلك الابحاث المعرفية، فلسفة العلوم، نظرية المعرفة، مناهج العلوم، منظوراً إليها من زاوية علمية معاصرة أي من خلال المرحلة الراهنة لتطور الفكر العلمي والفلسفي كما أنها علم المعرفة التي تختص ببحث العلاقة بين " الذات والموضوع " (إن الانسان يبني معرفته بهذا العالم من خلال نشاطه العلمي والذهني ، والبناء الذي يعتمده الانسان بواسطة هذا النشاط هو ما نسميه العلم والمعرفة (بلانشي، 2003، صفحة 9)، أما لفحص عملية البناء نفسها " تتبع مراحلها، نقد أسسها، بيان مدى ترابط أجزائها محاولة البحث عن ثوابت صياغتها صياغة تعميمية، محاولة استباق نتائجها " فذلك مايشكل موضوع الابستمولوجيا). (الجابري، 1982، صفحة 42)

3. المجال الابستمولوجي

بات واضحاً لكل من عالج موضوع الأبستمولوجيا أنه من العسير رسم تخوم تفصلها عن المباحث المجاورة، سابقة الذكر. والأمر شأنه شأن كل مسعى للتعريف. أنه، بادئ ذي بدء، مسألة مفردات، وإذن مسألة قرار حرّ لا ينمّ عما هو صواب أو خطأ، بل عما هو مناسب، كما يُقر بلانشيه إذ مهما تتباين طريقة تحديد معنى الكلمة، ستبقى تخوماً متحولة، لأن مشكلات الابستمولوجيا تتجاوز وتتناول في آنٍ مجالات كنا قد وضعناها خارج تلك التخوم ومنها العلاقة بين الإبستمولوجيا وكل من:

1.3 الابستمولوجيا وفلسفة العلوم:

يرى بلانشيه أن من شأن التمييز الدقيق أن يزداد عسراً بين الإبستمولوجيا وفلسفة العلوم، وذلك من جراء مرونة هذه العبارة الأخيرة. فثمة من يعترض على السمة الفلسفية للمبحث الابستمولوجي ويرى أن المهمة لأولى للإبستمولوجيا تمثل في تعيين معيار قبلي لكل معرفة علمية.

فإذا نظرنا إلى فلسفة العلوم بالمعنى الأوسع وجدنا أن الإبستمولوجيا فصلاً من فصولها، أو طرازا من

طرز ممارستها، وعلى هذا النحو صاحبا كتاب "قراءات في فلسفة العلوم" بتمييز أربع وجوه مختلفة لفلسفة العلم: (جوناثان.أرمسون، 2013، صفحة 139)

- دارسة علاقاته بالعالم وبالمجتمع.
- السعي لوضع العلم داخل مجموعة القيم الإنسانية.
- المحاولات الفكرية التي تنطلق من نتائج العلم وتجاوزها لبلوغ ما يمكن تسميته فلسفة الطبيعة.
- التحليل المنطقي للغة العلم.

وقد أعلن فايغل وبرودك أنهما يتمسكان بهذه الدلالة الأخيرة، وهي وحدها التي يمكن أن تتسق مع ما تشير إليه كلمة الإبستمولوجيا.

يمضي بعض الإبستمولوجيين إلى أبعد فيقطعون الجسور بين المفهومين، وكأنهم يسعون إلى صون الإبستمولوجيا، كمصطلح جديد من فساد يصيبها من الفلسفة!، الأمر الذي يُقارب بين المفهوم والعلم بمسعىً للابتعاد غير المبرر عن الفلسفة، وهذا ما يجعل بلانشيه يلاحظ أنهم يتحاشون استعمال هذه الكلمة الأخيرة، وهو ما يميل إليه أولئك الذين لا يعترفون بأي شكل للمعرفة سوى الشكل العلمي وينفون بذلك كل فلسفة لا تنحل إلى تحليل العلم، شريطة أن يكون هذا التحليل ذاته بحسب طرائق علمية. وهذا الموقف لا ينطلق دائماً من اتخاذ موقف مضاد للفلسفة، إذ أن الإبستمولوجيا باتت تفلت أكثر فأكثر من قبضة الفلاسفة، وتنتقل إلى العلماء أنفسهم، وهذا سمة من سمات الإبستمولوجيا المعاصرة الماثلة في اضطلاع العلماء المختصين بالمشكلات الابستمولوجية بالتدريج، وذلك ليس نتيجة وضع عابر، بل لأن الأزمات الحديثة التي زعزعت مختلف العلوم والثورات التي لزم عليها التعامل معها، قد أرغمت أولئك الذين يمارسونها على العودة إلى مبادئها، والتساؤل عن جوهرها. فقول(برنشفيك) إن ضروب تقدم العلوم ليست نحو الأمام دوماً، بل إنها قد تكون انعكاسية هو الذي جعل (ج. فراي) يميز ضروب التقدم الخطية عن ضروب التقدم الدائرية، وهو الذي جعل باشلار يتحدّث عن القطيعة الإبستمولوجية باعتبارها المضمون الذي يقف وراء عدم جعل تاريخ العلم تاريخ تقدم خطي بل هو تاريخ الزمن العمودي أو تاريخ

المنفصل أيضاً في العلم. غير أن الإبستمولوجيا قد تحولت إلى مبحث من مباحث الفلسفة على مستوى الدراسات الأكاديمية في الإبستمولوجيا. (جوناثان.أرمسون، 2013، صفحة 141)

فالإبستمولوجيا ليست من صنع العلماء، وهي لا تخاطبهم إلا عَرَضا. ومن شأن الفلسفة أن تعنى عناية عفوية بفلسفة علوم، بهدف إيضاح سبل المعرفة العلمية وتحديد الموضوعات التي تتناولها وتبيان صحتها، أي تبيان أساسها في مضمار الحقيقة، ولكن مسار هذه المعرفة الفلسفية يمرّ بمعرفة العلماء، فالمعرفة العلمية، والرياضيات هي ضابطها الرصين، هي معرفة متحررة من الحس، ومتصلة بآلية البرهان، لكنها عاجزة عن البرهان على حقيقة براهينها الخاصة، وعاجزة عن العثور في ذاتها على أساس مقالها. ولذا يترتب على الفيلسوف أن يعترف في وقت من الأوقات بتخطي صعيد العلم ليكتشف في مكان آخر، ما ينطوي على شروط حقيقته الخاصة. وهنا نلمس إفادة الفلسفة من فلسفة العلوم: إنها لا تجد في المعرفة العلمية موضوع المعرفة وحسب، بل تجد كذلك ما يميز خصوصيتها. وبعبارة أخرى: إن فلسفة العلوم نشاط هادف فيه يتقرر مصير الفلسفة ذاتها ما دامت الفلسفة تمنح منها كفالة وجودها ذاته، وما الحكم(السلبي) على العلم إلا، في الوقت ذاته، حكم(إيجابي) على الفلسفة. (بلانشي، 2003، صفحة 35)

ليس بين العلم والفلسفة في نظر(ديكارت) أي انقطاع، وإنما بينهما اتصال مستمر. وعلى هذا النحو لا يجد الفيلسوف أمامه من سبيل أفضل من محاكاة العالم واتخاذ العلم أنموذجاً ونقل شكل محاكمات العالم إلى مجالات أخرى يقول: "إن هذه السلاسل الطويلة من الحجج البسيطة والسهلة، التي تعوّد علماء الهندسة استعمالها للوصول إلى أصعب البراهين، أتاحت لي أن أتخيل أن جميع الأشياء، التي يمكن أن تقع في متناول المعرفة الإنسانية، تتعاقب على صورة واحدة، (مقالة الطريقة- القسم الثاني). وعلى هذا النحو لا تتميز الفلسفة بمضّادة العلم، بل بالاستمرار معه. إنها تقلّد العلم، تعيد إحداثه، وتجعله يستمر. ولكن صلتها بالعلم صلة مفارقة ما دامت تسعى إلى استباقه. وبينما كانت الفلسفة

في نظر(أفلاطون) خارج العلم، وتأتي بعده، أصبحت لدى(ديكارت) ضمن العلم وفي منطلقه. لقد صارت الفلسفة بوصفها معرفة أساسية، معرفة الأسس التي تمكن تصورها في منطلق النظام الذي تتكون منه أو في نهايته سواء بسواء. وقد أسهم(كانت) في مزيد من جلاء مسعى إقامة مشروع فلسفي على أساس فلسفة العلوم. فلئن عرفت الرياضيات والفيزياء كيف تلجان "طريق العلم اليقيني" وجب على الفلسفة والميتافيزياء أن تسيرا على الدرب ذاته. وبذا يترتب على مقال الفيلسوف المرور قبلئذٍ بتمهيد انتقادي. فهو مقال عقلي لأنه محدّد بشروط الإمكان التي ترسم حدوده. وعلى هذا النحو يتضح أن الرياضيات والفيزياء هي من علوم التجربة بالنسبة إلى الشروط القبلية المتصلة بإمكان وجودهما. ويتضح إذن أن علاقة الفلسفة بالعلم علاقة هادفة على نحو تحققها في فلسفة العلوم. حيث يكون العلم ذريعة التفلسف. ويتجلى نشاط هذا التفلسف بتعيين منزلة المعرفة العلمية أولا. (عزمي، 1984، صفحة 252) ويتجلى نشاط التفلسف في مضمار العلم في مشكلة هي مشكلة حدود المعرفة، ولا سيما المعرفة العلمية. فهذه المعرفة على نقيض المزاعم التي تُعزى إليها للتمكن من فضحها، لا تقدر على أن تعرف كل شيء.

وأما المشكلة الثالثة فهي تتعلق بمفهوم(العلم) (بالفرد)، حيث لا علم بالمعنى العام في ممارسة العلماء، بل ثمة منظومات معرفة نوعية نامية توائم موضوعاتها أو تعالجها، مثال ذلك المنطق الرياضي، الكيمياء الحيوية، التحليل النفسي. فهذه المباحث الحقيقية ليست مستقلة، رغم فصلها الإجرائي. غير أن لها استقلالاً ذاتياً على نحو نسبي: إنها لا تجمد البتة في نطاق تصنيف ثابت لا يتغير، بل هي على العكس، تصدر عن تبادل موصول بين وسائلها وأغراضها. (بلانشي، 2003، صفحة 64).

وهذا التبادل يغيّر تخموها ويخضعها على الدوام لشروط محدّدة ومتبدلة داخل تاريخ علوم حقيقي. وينجم عن/جهل/ تجاهل الفلسفة لهذه المعطيات المتصلة بممارسة العلماء الحقيقية أن استحدث الفلاسفة فكرة(علم) سرمدي يُظن أن فكرته البسيطة توجد خارج كل تاريخ، ولكن فلسفة العلوم، بل فلسفة(العلم) بالمفرد لا تلبث أن تستبدل بهذا الموضوع المثالي موضوعات حقيقية هي الطرز المتنوعة التي يعلم عليها العلماء مادياً، والتي بالانطلاق منها يبنون بآن واحد نظرياتهم والروابط الموضوعية التي يتيح تمنيتها إن وهم (العلم) لا يوجد إذن إلا لدى الفلاسفة. وإن فلسفة العلوم لتردّ هذا الوهم.

ولكن أغلب الباحثين يعزف اليوم عن هذا التعريف الواسع ويرون أن للأبستمولوجيا وظيفة أدق وأكثر تحديدا. فالأبستمولوجيا هي مبحث نقدي، وبذا يتحدد مجال نشاطها، وهي تدرس شروط إمكان إنتاج معارف علمية، وهي بذاتها دراسة وضعية ودراسة خاصة، وهي تفترض توافر طرائق وتقنيات محدّدة، وكأنها جزء مقتطع من فلسفة العلوم، جزء يطرح أسئلة وضعية عن مسيرة المعرفة العلمية، ويتخذ ما يتوصل إليه من أجوبة منطلق حكم على طبيعة هذا المعرفة ووسائلها وغاياته (عزمي، 1984، صفحة 255)

لكن كل أبستمولوجيا ليست تاريخية بالضرورة، ففلسفة العلوم سبقت الأبستمولوجيا، كما سبقت نظرية المعرفة تلك الفلسفة. والجدير بالذكر أن فلسفة العلوم في نظر(كانت) ومن بعده كانت أشبه بلجنة مراقبة تضبط شروط صحة المعرفة التي يسارع العلماء بطبعهم إلى تحاشي قراراتها ولكنها تلاحقهم بما يتوجب عليهم من الموانع والمحظورات والتصنيفات بذريعة حمايتهم من الخطر، خطر موهوم هو خطر وقوع العلم في التعسف أو الوسواس. وعلى الإبستمولوجيا أن تزوّد العلماء بالسلاح الذي يعينهم على دفع الحالات الحرجة، وأن تنير سبلهم. (عزمي، 1984، صفحة 257)

يقول(باشلار): "إن العقل ينمو في جو الأزمة. وكل نضج فكري مزعوم بشكل عائقاً في درب المعرفة". وهنا دور الفلسفة وبالتحديد الإبستمولوجيا. ويجب التنويه إلى "انفصام الفكر العلمي الحقيقي الحديث عن مجرد فكر النظام والتصنيف" وكذلك ينبغي "أن نميز كل التمييز الفكر العلمي النظامي الذي يعمر مخبر البحث عن الفكر العلمي الزمني الذي يلقى أتباعه في دنيا الفلاسفة". وإذ يُقر روبرت بلانشيه أن الرجوع التفكيري إلى مبادئ العلم وطرائقه لا يوجب على الدوام الانخراط في فلسفة، وليس كل ما وراء العلم فلسفياً بالضرورة، ولكنه يلاحظ أنه بما أن التفكير يتسع لازدواج غير محدود وأن كل ما وراء اللغة يمكن اعتباره بدوره موضوع ما وراء لغة من درجة أعلى وذلك كلما رقينا في معراج تسلسل ما وراء اللغة، فإننا سنرى بالتدريج رجوع العلماء لمناقشة المشكلات الفلسفية القديمة في أشكال متجددة، وكذلك انقسام العلماء، كانقسام الفلاسفة، إلى فريقين لا يستطيعان التفاهم حول معني الكلمة: الاتفاق على حلّ، ولا حتى أن يتفاهم بعضهم مع بعض تفاهماً صحيحاً. فإذا حرصنا على تمييز الأبستمولوجيا عن الفلسفة وجب إما أن نقول إن الأبستمولوجيا جزء من فلسفة العلم من حيث اختلاف السعة، وأنها الجزء الأقرب من العلم بلا ريب، واليوم أكثر من أي وقت مضى، من حيث روحها وطرائقها، أو نقول إن الإبستمولوجيا تشغل منطقة متوسطة بين العلم والفلسفة وأنها تفيض بطرفيها في كل منهما. لكن هذه المحاولة من بلانشيه توسّطية وكأنها تريد اعترافاً بالإبستمولوجيا إزاء سطوة العلم، في الوقت الذي تشكل فيه مبحثاً مستقلاً لا تحتاج فيه إلى كل هذا التلطّي خلف العلم أو الاعتراف بدلالته، ففلسفة العلوم مساحة مختلفة تتقاطع أحياناً مع الإبستمولوجيا وتتباين أحياناً أخرى لتأخذ شكلها الخاص. (قنصوة، 2007، صفحة 52)

2.3 الأبستمولوجيا والعلوم الإنسانية:

إن العلوم الإجتماعية، من حيث هي علوم بالمعنى الواسع للكلمة، تقدم للأبستمولوجيا أحد موضوعاتها. ولذا فإن علاقة الأبستمولوجيا بهذه العلوم هي من الناحية المبدئية، شبيه بعلاقتها بالعلوم الرياضية أو بعلوم الطبيعة، والأبستمولوجيا تقع بالنسبة إليها في مستوى أعلى تهيمن منه عليها، إنها تهيمن عليها من مستوى أعلى متفاوت العلو وبقدر انبثاق التفكير الأبستمولوجيا مباشرة عن ومآزق العمل العلمي نجد يبقى قريباً جد قريب من هذا العمل باعتبار نوعيته: فالأبستمولوجيا الداخلية للرياضيات مطبوعة انطباعاً قوياً بروح الرياضيات وطرائقها، وهي غريبة كل الغرابة عن العلوم الإنسانية، بينما نرى لسبب ذاته، أن التحليلات التي يقوم بها علماء وعلماء النفس وعلماء الاقتصاد واللغويون والتي يتنازعون فيها حول طريق معالجة دراساتهم ومتابعتها، لا تزال مطبوعة بطابع البحوث ذاتها التي تشكل موضوع هذه العلوم. ولكن ذلك لا يعني أخيراً أنها أقل تميزاً عنها من حيث طبيعتها مثلما يتميز ما رواء العلم عن العلم الذي يتناوله، وكما يرجع الفكر إلى مبعدة عن موضوعه ليتسنى له ضم جملة أوسع فإنه يتخلص شيئاً فشيئاً من الجانب النوعي لهذه الجملة، وبذا ندرك أن الأبستمولوجيا العامة التي تتناول جملة العلوم لا يبدو أنها تنتمي إلى العلوم الإنسانية بأكثر من انتمائها إلى الرياضيات أو الفيزياء. على الرغم من ذلك فإن الأمور أكثر تعقيداً مما يبدو وفي وسعنا أن نتساءل ونحن نقلب المنظور رأساً على عقب: هلاّ تنتمي الأبستمولوجيا برمتها إلى العلوم الإنسانية من بعض أوجه الاعتبار.

من الملاحظ أن موقع الأبستمولوجيا هو من جهة العلوم المسماة "معنوية" أو "إنسانية"، وقد شغل كثير من الإبستمولوجيين، ومنهم (باشلار) مقعده في(أكاديمية العلوم المعنوية والسياسية)، واحتل كرسيه الجامعية في(كلية الآداب والعلوم الإنسانية). (النبي، 1988، صفحة 118)

ونحن نذكر مثلاً أن(برودبل) كان يميز ضمن أربعة طرز مختلفة للتفلسف في العلم، واحد منهم هو طراز تخلى عنه هو ذاته في آخر المطاف، وهو دراسة علاقات العلم بالعالم وبالمجتمع العلم بوصفه نشاطا إنسانياً، وظاهرة اجتماعية. وكذلك فإن(ريخنباخ) يرسم ثلاث مهمات متعاقبة للأبستمولوجيا: الأولى تتصل بعلم النفس وعلم الاجتماع وهي تجري في "سياق الاكتشاف" ثم يلي "سياق التسويغ" وهو عمل "إعادة بناء عقلي" لطريقة الاكتشاف، وأخيراً مهمة نقدية بالدرجة الأولى وهي تبدأ سلفاً لدى إعادة البناء العقلي، ولكنها تتخلص الآن تماماً من علاقاتها بعوامل الاكتشاف الاختبارية، وإن الثانية التي تفترض بدورها الأولى فإذا فهمنا حق الفهم ألفينا أننا نميز بوجهين: الأول وصفي والآخر انتقادي، وكلاهما يقوم على اتخاذ العلم موضوع الدراسة: سواء من حيث أنه يوجد بوصفه واقعاً من طبيعة نفسية واجتماعية وتاريخية، وأما من حيث زعم العلم أنه يبلغ حقيقة لا شخصية ولا زمنية. (الخولي، 2012، صفحة 59)

يمكن البعث بإبعاد تاريخ العلوم وعلم النفس الاكتشاف العلمي عن مضمار الأبستمولوجيا ما داما ينتميان إلى علوم اختبارية متصلة التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس بالرغم من تميزها عنها التميز كله؟ لقد اعتنق التصور الأول الإبستمولوجيون المنتمون إلى الاختبارية المنطقية، وقد اتخذت أعمالهم بالدرجة الأولى موضوعها ما نعده اليوم بالمعنى الدقيق، أي العلم الحاضر. (عزمي، 1984، صفحة 258)، وهذا ما يغني عن الرجوع أي رجوع إلى تاريخه المنصرم، وقد اقتصروا على ما يمكن إدراكه فيه من موضوعية، أي على لغته ليتخذوه موضوع تحليلهم وهذا ما يستبعد أي تدخل من جانب العناصر الذهنية. ولئن برهنت هذه النظرة إلى الأبستمولوجيا على جدارتها، فإن ذلك لا يمنع توافر دروب بحث أخرى. أفلا يرجع قصر التحليل على العصر والتغافل عن الطريقة التي قد تكون بها بالتدريج، ألا يرجع في آخر المطاف إلى نقل قسم كبير مما يبق العلم

وأعدّه بما في ذلك العلم المدرس إلى ما قبل تاريخ العلم تماماً، وعلى الأقل إلى نوع من عصر وسيط علمي؟ أولا نجازف من ناحية أخرى، بالسقوط في شكل أقصى من أشكال الاسمية باقتصارنا اقتصاراً منهجياً على الدالّ وحده، وكأنه يلغي ذاته بذاته ولا يتطلع فيما وراء ذلك إلى مدلول؟ إن أفضل الأوضاع الممكنة بصدد مسألة علاقات الأبستمولوجيا بالعلوم الإنسانية إنما يبدو لنا على النحو الآتي: فمن جهة أولى عدم قصر الأبستمولوجيا على تحليل اللغة العلمية، فذاك تصور خصب ولكنه ضيق وجزئي. وقبول حقل بحوث أوسع للأبستمولوجيا وبالدرجة الأولى البحوث المتصلة ببناء العلم تدريجياً وبنشأة الفكر العلمي ونموه، وهذه البحوث تستلزم اللجوء إلى العلوم الإنسانية ومن جهة أخرى، العزوف من جراء ذلك عن تصنيف الأبستمولوجيا ضمن العلوم الإنسانية، وعدم الحطّ من شأن الأبستمولوجيا بوضعها على قدم المساواة مع بعض العلوم التي تهدف هي إلى اتخاذ موضوعاً، حتى ولو كان التفريق غير جلي دوماً من الناحية العملية بين الغاية والوسائل، بين ما هو خاص بالأبستمولوجيا وبين التعاليم التي سيطلبها من التكون النفسي والتكون الاجتماعي ليدرك غرضه، إن الابستمولوجيين الأمريكيين يرجعون بوجه عام إلى مناهل اللغة المصوغة من أجل تحليلاتهم. (عزمي، 1984، صفحة 260)، ولكننا لن نستخلص من ذلك صواب نقد الأبستمولوجيا إلى جانب العلوم الصورية أما الابستمولوجيون الأوروبيون فإنهم يلجؤون في الغالب وبصورة منهجية، إلى مناهل العلوم الإنسانية. ولكن رجوعهم هذا لا يبدو لنا أنه سبب كافٍ لانضواء هذه العلوم تحت لواء الأبستمولوجيا، ويبقى من البديهي أن ليس لحوافز هذا اليسر الإداري الذي قد يملي هذا التقارب أن تتدخل هنا.

4. طبيعة الابستمولوجيا:

أسهم التطور العلمي في العصر الحاضر في تغيير كبير في مفهوم " الأبستمولوجيا فأصبح الفلاسفة يبحثون الأبستمولوجيا في إطار المعرفة العلمية

وحدها، بعد أن كانت الأبستمولوجيا التقليدية تختص بالبحث في أسئلة تقليدية حول أمكانية قيام المعرفة وإذا كانت ممكنة أو غير ممكنة ووسائلها وحدودها. (كركي، 2010، صفحة 97)

لقد أوضح لالاند في معجمه الفلسفي أن مفهوم الأبستمولوجيا ينصب أساساً على الدراسة النقدية لمبادئ مختلف العلوم، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على الصلة الوثيقة بين العلم والأبستمولوجيا علاوة على الصلة المتينة بينهما وبين الفلسفة، وكان من نتيجة التطور العلمي المعاصر أن كثيراً من الدارسين المعاصرين أصبحوا يميزون بين الابستمولوجيا، التي تهتم بالمعرفة العلمية فحسب ونظرية المعرفة بشكلها ومباحثها التقليدية، وفيما ترتكز المعرفة العلمية على أدوات القياس والتجريب فأن المعرفة الحسية ترتكز على الحس فقط والمعرفة، تؤكد دائما على الناحية الثانية ذلك لأن حواسنا هي وسيلتنا الأولى والأخيرة لاكتساب هذين النوعين من المعرفة ووسيلتنا الأولى لمعرفة العالم الخارجي والدخول معه في علاقات ووسيلتنا الأخيرة لتحصيل المعرفة العلمية ذاتها. (الجابري، 1982، صفحة 16)

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فأن نفس المشاكل التقليدية التي شغلت الفلاسفة، بصدد نظرية المعرفة يمكن أن تثار الآن لكن في أطار العلم المعاصر وتطوره، فيمكن أن نبحث عن علاقة "الذات بالموضوع" أو "موضوعية العالم الخارجي" أو "قيمة ما يمدنا به العقل" إلى غير ذلك من المسائل التي شغلت الفلاسفة، لقد ميز باشلار بين ثلاث مراحل في تكوين العقل العلمي :

- المرحلة الاولى تمثل الحالة ما قبل العلمية وتشتمل على الازمنة الكلاسيكية القديمة وعصر النهضة والجهود المستمرة في القرن السادس عشر والسابع عشر وحتى في القرن الثامن عشر.

- المرحلة الثانية التي تمثل الحالة العلمية والتي بدأت في أواخر القرن الثالث عشر وتشمل القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

- أما المرحلة الثالثة والاخيرة فهي مرحلة العقل العلمي الجديد أبتدأً من عام 1905 حتى بدأت نظرية أنشتاين في النسبية تغير كثيراً من المفاهيم الخاطئة التي كانت سائدة قبل ذلك وقد شهد النصف الاول من القرن العشرين تطوراً مذهلاً في مجال العلوم مثال ذلك الميكانيكا الكونتية والميكانيكا التموجية عند لويس دي بروي وميكانيكا ديراك وفيزياء هيزنبرغ .

لقد أراد باشلار أن يربط الابستمولوجيا بتطور العلوم، فأستلهم وقائع العلم وفروض الرياضيات وبدأ بالعلوم الفيزيائية حتى تأتى له أن يضع المادة موضعاً جديداً وهذا هو الطريق الذي ضمن لباشلار الانتهاء الى مذهبه في "المادية العقلانية" أو "العقلانية العلمية"، وبما أنه يفترض بكل معرفة علمية أن يتحدد بنائها في كل لحظة حسب تطور العلم والعلوم فأن براهيننا العلمية والمعرفية سيكون أمامها المجال الكافي لكي تتطور على مستوى المسائل الخاصة، دونما أي اهتمام بالمحافظة على هذا التطور التاريخي" لنظرية المعرفة".

من هنا قول باشلار ذو مغزى: أنه ربما نرتكب خطأً بليغاً إذا اعتقدنا أن المعرفة التجريبية يمكنها أن تبقى في ميدان المعرفة اليقينية التقريرية، من خلال انحصارها في نطاق التوكيد المحض للوقائع ومعنى ذلك أن المعرفة التجريبية عند باشلار تعجز عن الوقوف أمام المعرفة اليقينية المتكونة أصلاً في نفس العالم، ويؤكد هذا قول باشلار : "أنه لا مناص للعقل العلمي من أن يتكون بمواجهة الطبيعة ، بمواجهة ما يكون فينا وخارجنا، بمثابة الحافز والموجه للطبيعة". (باشلار، 1982، صفحة 21)

إن الابستمولوجيا المعاصرة كما نجدها عند باشلار تستند الى معطيات الثورة العلمية المعاصرة في مجال العلوم الرياضية والعلوم الفيزيائية بصفة

خاصة، لكي نؤكد أن آثار هذه الثورة لم تمس بمبادئ تلك العلوم فحسب، بل لحقت أيضاً بنية الفكر الإنساني ذاته أن ما تنبهنا أليه الثورة العلمية المعاصرة في نظر باشلار هو أن الفكر الإنساني لا يحيا علاقة وحيدة الجانب مع التطور العلمي، فهو ليس منتجاً لهذا التطور العلمي فحسب بل إنه متأثر بنتائج هذا التطور أيضاً، وهذا ما لم تنتبه إليه الفلسفة الكلاسيكية التي استخلصت مبادئ الفكر الإنساني في مرحلة معينة من تأريخ العلوم فأضفت على هذه المبادئ صفة الاطلاق، واعتقدت نتيجة لذلك أن هذه المبادئ هي بنية الفكر الإنساني ذاته .

إن هذه النتيجة الفلسفية التي تصل إليها الابستمولوجيا المعاصرة ممثلة في باشلار، لا تهدف الى التأكيد على سلبية الفكر الإنساني أمام التطور العلمي فنقول مثلاً تؤكد ذلك النظرة التجريبية أو الواقعية أو الوضعية التي تهيمن على العلماء، بأن الفكر الإنساني يواجه الواقع بدون بينة ولا معارف وأنه مجرد متلق للتأثير، فهذا موقف ينتج عند العلماء عند انغمارهم في العمل العلمي التجريبي فهم عندئذ يخضعون للواقع يرون أن فلسفة العلوم تحكمها الوقائع لا المبادئ ثابتة للعقل توجد في استقلال عن أية تجربة، ولكن هدف تلك النتيجة الفلسفية المشار إليها، يكون أيضاً عدم الخضوع لرأي الفلسفات العقلانية المثالية التي تؤكد أن للفكر الإنساني بنية ثابتة، وأنه يواجه الواقع وهو حائز بصورة فطرية أو قبلية للمقولات التي تؤهله للتفكير في هذا الواقع، أن الهدف هنا هو القول بوجود علاقة جدلية بين الفكر الإنساني وبين تطور المعرفة العلمية التي ينتجها، أن المعرفة العلمية من نتاج الفكر الإنساني لاشك في ذلك، ولكن الفكر الإنساني بدوره من نتاج هذه المعرفة، وأن النتيجة الاساسية اللازمة عن هذه الوجهة من النظر هي القول ببنية متغيرة للفكر الإنساني بفعل من تطور المعرفة العلمية، وهذا هو المعنى الذي يقصده باشلار عندما يقول بأن القيم الجديدة التي حملتها

معها الثورة العلمية المعاصرة هي قيم نفسية الى جانب كونها قيماً معرفية. (وقيدي، 1980، صفحة 113)

وفي هذا يقول باشلار: "إذا وضعنا مشكلة الجدة العلمية على الصعيد النفسي الخالص، لن يفوتنا أن نرى هذا السير الثوري للعلم المعاصر لابد وأن يؤثر على بنية الفكر، فالفكر بنية قابلة للتغير منذ اللحظة التي يكون فيها للمعرفة تاريخ ". (باشلار، 1985، صفحة 144)

وبهذه الكيفية فأن تاريخ المعرفة العلمية يمكن أن يكون في الوقت ذاته تأريخ المتغيرات التي لحقت الفكر الإنساني منذ أن بدأ هذا الفكر في إنتاج معرفة علمية، وأن القول بعقل إنساني ثابت في بنيته، معناه أدراك تاريخ العلوم وتاريخ الفكر الإنساني كما لو كانا واقعين منفصلين ومعناه عدم القدرة على استخلاص القيم الأبستمولوجيا التي تبرز مع كل فترة من تاريخ العلوم، وهي قيم ليست جديدة بالنسبة للمعرفة العلمية في ذاتها فحسب، بل هي قيم نفسية لأنها تتعلق بالفكر الإنساني من حيث بنيته، فالعقل الإنساني في نظر باشلار بنية لها تاريخ، وتاريخها في تطور معارفها، إن بنيتنا العقلية تنتج المعارف ولكنها تخضع التاريخ لتأثير تطور هذه المعرفة فتعرف هي ذاتها تطورا، أن العقل لا ينتج العلم فحسب ولكنه فضلا عن ذلك يتعلم من العلم "فالعلم بصفة عامة بعلم العقل، وعلى العقل أن يخضع للعلم الاكثر تطورا، العلم الذي يتطور". (باشلار، 1983، صفحة 14)، وعلى أساس هذا الاعتقاد بوجود فكر إنساني ذي بنية متطورة يقترح باشلار أن تكون أحدى مهام الابستمولوجيا المعاصرة البحث في أثر المعارف العلمية في تطور بنية الفكر.

أن الفكر المعاصر في نظر باشلار يرفض من الناحية العلمية فكرة "الشيء في ذاته"، كما جاءت عند (كانت) لأن معنى الشيء في ذاته في العلم مظهر لتقدم العلم لا لحدود المعرفة العلمية، فكلما تقدم العلم بلغ معرفة بما كان يعتبر مثل

ذلك شيئا في ذاته، وفي هذا التأكيد يستفيد باشلار من التقدم السريع الذي حققته العلوم المعاصرة والذي استطاعت بفضله أن تصل الى معرفة بعض الظواهر الكونية التي لم يكن العلم في القرون السابقة قادراً بفضل ولكان متوفرا لديه من وسائل على ملاحظتها ملاحظة دقيقة في الاولى اكتشاف قوانينها،كموضوع علمي فنواة الذرة مثلاً كانت شيئاً في ذاته بالنسبة لعلم القرون السابقة

فلكي نثبت أن للمعرفة العلمية حدود ينبغي لنا في نظر باشلار الا نقف عند بيان عجز عن حل مشكلة ما، بل إن نرسم الحدود النهائية التي لا تستطيع المعرفة العلمية أن تتجاوزها، غير أن هذا الامر لا يجد له مبررا في تأريخ تقدم المعرفة العلمية، لذلك يصح لنا الاستفادة من هذا التاريخ أن نقول بأن المشاكل التي تبدو غير قابلة للحل عندما يتم بفضل تقدم العلم بلوغ وضع جدير لها، بمعرفة المعطيات الموضوعية المتعلقة بها، أن المسألة أذن ليست في قدرة أو عدم قدرة العلم على حل بعض المشاكل، وأن وضع حدود لمعرفة العلم لا يمكن أن يأتي من خارج العلم بل من العلم ذاته .

العلم هو الذي يضع حدوده الخاصة وعندما يكون قد حدد بوضوح هذه الحدود فأنه يكون قد تجاوزها، نستخلص مما سبق أن مفهوم الحدود الأبستمولوجيا بالنسبة للمعرفة العلمية ليست الا توقفاً لحظياً لهذه المعرفة وأنه لا يمكن أن نرسم بصورة موضوعية هذه الحدود، ولذلك فأن الصيغة الاكثر ملائمة للتعبير عن هذا هي القول بأن الحدود بالنسبة للعلم تعني برنامج عمل أكثر مما تعني عوائق مطلقة. (شعبان، 1993، صفحة 130)

إن العقل العلمي يمنعنا من تكوين رأي حول قضايا لا نفهمها حول قضايا لا نحسن صياغتها بوضوح، قبل كل شيء لابد من معرفة كيفية وضع وفهما في الحياة العملية فأن المشاكل لا تنطرح ذاتيا ومن الواضح أن هذا المعنى للمشكلة هو الذي يعطي للعقل العلمي الحقيقي طابعه، فبالنسبة الى العقل تعتبر كل

معرفة جواباً على مشكلة، فإذا لم يكن ثمة "مشكلة " لا يمكن أن تكون ثمة معرفة علمية، وإذا عدنا أخيرا بصدد كل معرفة موضوعية الى اعتماد معيار صحيح للتجربة من جهة والعقلانية من جهة ثانية فأننا قد نندهش من تجمد المعرفة الناجمة عن الاشتراك المباشر في مشاهدات خاصة، ولسوف نرى بخصوص المعرفة الشائعة أن الوقائع متضمنة بشكل مبكر جدا في المبررات والتعليلات، أذن بدون تشكيل عقلاني للتجربة التي يحددها طرح المسألة وبدون هذه الاستعانة الدائمة ببناء عقلاني صريح تماما، سيترك المجال أمام تكوين نوع من لاوعي العقل العلمي يطرح الموضوع على الشكل التالي علينا أولا طرح الموضوع كمادة مشكلة وطرح ذات الطرح كوعي للمشكلة وهكذا يفكر الكائن المفكر في منتهى معرفته بعدما يكون قد أحصى معارفه الصالحة لحل المشكلة المقترحة، فهذا الاحصاء الذي هو وعي لنظام حركي من الافكار هو إذا مستقطب في ظل المشكلة المطلوب حلها، في العقلانية المعَلمة يأتي الاحصاء معقلنا وضيقا على خط واضح التحديد، بين الاستناد الى أسسه لكن في العقلانية المسألة توضع الاسس نفسها في موضع اختبار، بل تطرح على بساط البحث من قبل المشكلة، أن المشكلة هي الذروة الفاعلة للبحث فالتباس الترابط والجدلية والمشكلة هي كل عناصر الاحصاء العقلي هي كل أوقات هذه التبعة للعقل، وحول المهام الاساسية للأبستمولوجيا الباشلارية، يحدد علي حسين كركي هذه المهام لتحديد أن المهمة الأولى والأساسية هي إبراز القيم الأبستمولوجيا التي تفرزها الممارسة العملية وذلك بقطع الطريق على كل ما تحاول الفلسفة إدخاله في العلم من قيم أخلاقية ودينية وجمالية، ولكن ماهي هذه القيم الأبستمولوجيا وما مصدرها كيف تفرض نفسها ؟ إن مصدر هذه القيم النظريات العلمية ليس كل النظريات العلمية بل الجديدة والثورية منها، فالقيمة الأبستمولوجيا للهندسيات اللاأقليدية مثلاً ترتبط بما تقدمه هذه الهندسيات من تصور جديد، للمكان وهذا التحديد لمهمة فلسفة

العلوم تحديد إيجابي فبموجبه لا تكون فلسفة العلوم تدخلاً فلسفياً في العلم لتبرير أهداف خارجة عنه، بل تكون استيعابا للقيم العلمية الجديدة، التي يفرزها التطور العلمي، وبمعنى آخر أن باشلار لا يريد أن يقيم نظرية في المعرفة تحتوي النتائج العلمية لتحديد أهداف ايدلوجية، ولكن ثمة شروط لابد منها لتتمكن فلسفة العلوم من إبراز القيم الأبستمولوجيا التي انتجها التطور العلمي. (كركي، 2010، صفحة 122)

لابد أن يكون الأبستمولوجيا لفظ أزاء العلم المعاصر عليه قبل كل شيء، أن يتجاوز المبدأ القائل إن الاولى كان دائما الأساسي بالعكس عليه أن يتجرد على تاريخ التجربة وتاريخية ما هو عقلاني فهو لن يكون قادرا على إبراز القيم الأبستمولوجيا، الا إذا قطع مع الأحوال والبدايات المطلقة وأدرك أن النظريات العلمية المعاصرة لامثيل لها في التاريخ السابق وهي جديدة تماما لذا لا يمكن أن نبحث عن أصول في هذا التاريخ، ومن خصائص مرحلتنا أن الواقع فيها مبين لا معطى حيث تلعب الآلة دوراً كبيراً في عملية إدراكنا للواقع، وعليه إذا أراد أن يكون مجدداً أن يختار أولوية النتائج العلمية على السيستم الفلسفي يواكب بذلك سير التاريخ العلم وتقدمه معارضا أسلوب الفلسفات التقليدية، وبموجب هذا الاختيار يخضع الفيلسوف العلم السيستم الفلسفي للقيم الأبستمولوجيا ويجبره على التحرر وفق القيم الجديدة والتي يفرضها تاريخ العلم هذه المهمة الاولى، أما الثانية فهي البحث في أثر تطور المعارف على بنية الفكر، سيؤدي هذا البحث الى فوضى في العقل مخالف للموقف الفلسفي التقليدي إنه موقف مربك للفكر فالعقل بفعل تطور المعارف العلمية وتأثيرها في بيئته سيغدو دينامي فعالا، إن فلسفة العلوم مع هذا الفهم الدينامي لبيئة العقل التي تتعارض وتطور العلم، بل تستقبل القيم الجديدة حتى وإن كانت مناقضة ومخالفة لتصورات فلسفية سابقة .

أما المهمة الثالثة فهي التحليل النفسي للفلسفة الموضوعية فقد نقل باشلار هذه النظرية الى الابستمولوجيا فأفترض أن ثمة مكبوتات عقلية لدى الباحث العلمي على الأبستمولوجيا أن يبحث عنها ليظهر أثرها في البحث العلمي، على فيلسوف العلم أن يكون المحلل النفسي لعمل الباحث، بمعنى أن عليه افتراض جانب باطني ديناميكي في العمل العلمي يؤثر على هذا العمل، لذا وكما أن أدراك المكبوتات والعقد النفسية من شأنه مساعدتنا على فهم السلوك الإنساني والحياة النفسية فإن التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية سيمكننا من فهم هذه المعرفة في تطورها أو نكوصها أو توقفها وما يسميه فرويد عقدا نفسية، يسميه باشلار عوائق أبستمولوجيا وهو يكرس دراسة مهمة كتكوين العقل العلمي والتحليل النفسي للنار لكشف هذه العوائق وتحديد الميكانزيم الذي على أساسه تتوقف المعرفة الموضوعية وتتقهقر. (كركي، 2010، صفحة 123)

4. دور الابستمولوجيا في حل مشكلة العلوم الانسانية

إن الهدف من العلوم الإنسانية، ومِنْ حَلِّ مشاكلها هو حل مشاكل جَمَّة للواقع الحضاري، ليس من المستهدف البتة عزل العلوم الإنسانية عن واقع الحياة الإنسانية ومتطلباتها وأهدافها، وليس من المطلوب إذعان مستور للأوضاع الراهنة يتذرع بالحياد الأكاديمي ولا خضوع، بل تكريس له بزعم الموضوعية العلمية ولا طبعًا إثارة الثورة عليه لمجرد الشغب والفوضى والرفض تحت اسم العلم المجيد، على هذا نستطيع التأكيد وبحسم على أنه ليس من المنشود البتة، ولا حتى من المقصود اجتثاث الأصول والجذور الحضارية للمشروع العلمي في المباحث الإنسانية، إن السياق الثقافي الحضاري القيمي رافِد ضروري للمحتوى المعرِفِيِّ في العلوم الإنسانية، إن لم يكن مَنْبَعًا من ذاته صلب موضوعها ومسرح ظواهرها، لكن إثراءها، وحل مشكلتها ومشاكل عديدة له، يتطلب التفاعل المثمر السليم بينهما ويشترط هذا أن يكون كل في موقعه، كل لأداء دوره. (الخولي، 2012،

صفحة 136)، إذا كنا توقفنا عند تشويهات الأيديولوجيا بالذات للعلوم الإنسانية، فقد أشرنا إلى أننا لا نعطيها في حد ذاتها أية دلالة سلبية، فهي مفهوم جوهري للجماعة الإنسانية، إن الأيديولوجيا كيان شديد الأهمية وإذا كنا استعنا ببول ريكور لتوضيح طبيعة تشويهات الأيديولوجيا للعلم فإن ريكو نفسه يقول:" إن هذا الفساد والاختلال اللذين يلحقان بوظيفة الأيديولوجيا، لا ينبغي أن يخفيا عنا الدور الإيجابي لها، أي الدور البنائي التأسيسي الجيد الذي تلعبه في حياة الجماعة ويجب علينا هنا أن نعيد التذكير بأن كل مجموعة إنسانية لا يمكن أن تتمثل وجودها الخاص إلا بواسطة فكرة وصورة نموذجية تصنعها عن ذاتها، وهذه الصورة هي التي تُؤَسِّس بدورها وحدتها وتماسُكها وتُقَوِّي إحساسها بهويتها الذاتية". (ريكور، 1988، صفحة 2)

إحساسنا نحن بهويتنا الذاتية تصاعَد في الآونة الأخيرة، ويتخذ صورة صحوة قوية للحس الديني، ليغدو الإسلام العظيم خاتمة الرسالات السماوية، هو سبيل تحقيق الذات، ونشدان الهوية، وأسس المشروع الحضاري، وإطار الأيديولوجيا الأصولية والمستقبلية، وهذا شيء قد يكون محمودًا، خصوصًا في إطار مواجهة العولمة التي تهدد بمحو كل تنوعٍ وثراء وتمايُز حضاري، ولكن تنامت مؤخرًا الدعاوى إلى العلوم الإنسانية الإسلامية أو العربية، والذي يجب تأكيده وبداهة من أجل صالح حضارتنا أولًا أنَّ أسلمة العلوم الإنسانية أو الفيزيوكيميائية، لن يحمل في حد ذاته حلًا لمشكلتها أو تقنينًا لمرحلتها التفسيرية، ومضاعفة لتقدّمها، وبالتالي لن يزيد في حد ذاتها من إحاطتها بالواقع، وقدرتها على المساهَمة في حل إشكالياته، أجل لن يزيد من هذا شيئا إذا ما غض إمكانية حل مشكلة العلوم الإنسانية النظر عن شروط العلم، أي خصائصه وقواعد منطقه، وأصوليات منهجه، ومن ناحية أخرى وإذا افترضنا أن ظواهرنا الإنسانية والاجتماعية ذات طبائع وحيثيات مختلفة عن الظواهر الغربية، وافترضنا أن

النظريات العربية لا تحيط بها، فالمطلوب ومن أجل الإحاطة بها أن نضع نحن نظريات ملائمة لها فتنجح في وصفها وتفسيرها، فلا بد إذن أن تكون هذه النظريات والفروض قابلة للاختبار والتكذيب التجريبي، لنتحقق من قدرتها على القيام بالمهام المرجوة من العلم، وفي كل حال لا مندوحة لنا عن معايير المنطق إن المنطق هو المعامل الموضوعي والقاسم المشترك الأعظم بين البشر أجمعين مهما تبايَنَت مشاربهم، لأنه قوانين العقل الإنساني من حيث هو إنساني، وبالتالي فإن منطق العلم هو قوانين العقل العلمي من حيث هو علمي.

كما حرصنا على تحقيق هدف مؤداه ألا تقتحم البِنَى الحضارية والأيديولوجيا المشروع العلمي، فإننا نحرص أيضا على ألا يقتحم منطق العلم البِنَى الحضارية والمشاريع الأيديولوجية، ومنطق العلم لا يملك حكما لا قبولا ولا رفضا لمشروع حضاري معين أو بنية أيديولوجية دون سواها، معنى هذا أنه لا خوف إطلاقا على عناصر هويتنا القومية وقيمنا ومنطلقاتنا من صرامة منطق العلم ومعيار التكذيب، فإن المنابع الأيديولوجية في حد ذاتها محتمية بحدودها، فحتى ولو كانت مصدرًا لفرض علمي، فإن الفرض هو فقط وفي حد ذاته الذي يخضع للاختبار التجريبي، يتم تكذيبه أو تعديله أو تعزيزه، أما المصادر الحضارية الكبرى فلا علاقة لمنطق العلم ومعاييره بها. (الخولي، 2012، صفحة 137)، قد انتهينا إلى أن الوقائع التجريبية والتعميم الاستقرائي لها ليس مصدرا منهجيا للفرض العلمي، فهو يأتي من أي طريقٍ كان المهم هو مضمونه، ومحتواه، وقدرته على حل المشاكل المطروحة وإثارة مشاكل أخرى، ما دام فرضا علميًا قابلا للاختبار والتكذيب، منطق العلم وأيضا منهجه لا علاقة لهما بمصدر الفرض، بل فقط بالفرض ذاته والفرض العلمي قد يستلهمه الباحث المبدع من الملاحظة التجريبية من الأيديولوجيات والفلسفات، قد يهبط من التراث، وقد يصعد من حصائل الحس المشترك، وقد يأتي من طريق آخر غير هذا وذلك...

سيكون مغنما عظيما لنسق العلم ولبنائنا الحضاري، لو استطاع باحثونا في العلوم الإنسانية استلهام تراثنا الزاخر وواقعنا المُتَطَلّع والخروج بفروض علمية قادرة على الإحاطة بالظواهر الإنسانية، فتثري نسق العلوم الإنسانية، وتمكنه من طرح تفسيرات مشكلة العلوم الإنسانية أكثر كفاءة، المهم فقط أن تصاغ من المصادر المتنوعة فروض تتحقق فيها الشروط المنطقية للسمة العلمية، أي يصاغ الفروض في صورة نظرية يمكن أن نستنبط منها قضايا جزئية، ندبر لها المواقف التجريبية لاختبارها، على أن تدبير المواقف التجريبية والاختبارات التكذيبية في العلوم الإنسانية لا يقتصر على المشاهَدات أو التجارب المعملية والميدانية فحسب كما هو الحال في العلوم الطبيعية والفلك والجيولوجيا ... إلخ بل يتعداه إلى كل الوسائل الإمبيريقية المعروفة من أسئلة واستبيان واستبار ومقابلات وأقوال شائعة ... وحتى ما تنشره الصحف اليومية ... إلى آخر الأساليب المعروفة لباحثي العلوم الإنسانية تبعا لتخصصاتهم المختلفة. (سايمنتن، 1993)

معنى هذا أنه يمكن أن يظل التراث والأيديولوجيا والحس المشترك والقيم... بالنسبة للعلوم الإنسانية رصيدا هائلا، ولكن لا يمكن استثماره إلا إذا تحول إلى عملة قابلة للتداول بين العلماء، فالمهم إذن أن يكون ثمة محك مشترك يمكن الارتكاز إليه للحكم على أهلية الفرض أو عدم أهليته للقيام بمهام العلم الإخباري، وتلك مهمة تؤدي داخل نسق العلم ذاته، بعبارة أخرى، معيار القابلية للاختبار والتكذيب التجريبي يحكم على مسير ومصير الفرض داخل نسق العلم ذاته، ولا يملك أي حكم على مصادره الأيديولوجية، ومهما كانت وثيقة الصلة بالعلم، إنه مثلًا: لا يفضي إلى الحسم بين قول الماركسيين، إن المجتمع في صراع، وبين قول الوظيفيين بأنه متوازن ومستمر، فهذا من شأن المنظورات الأيديولوجية، وكذلك الدعوى بالعلاقة الجدلية أو الزعم بالتكامل، فهذا من شأن الافتراضات الفلسفية ولكن على الماركسيين والوظيفيين وغيرهم أن

يستخرجوا من هذا الزعم أو ذلك ما يصلح أن يكون فروضا علمية تقبل الامتحان، وتحتكم إلى المشاهَدات والتجارب، تُؤَيَّد أو تُفَنَّد فروض من هذه النظرية أو تلك، بحيث تنضم الفروض الناجحة "أو التي اجتازت اختبارات القابلية للتكذيب وتم تعزيزها" إلى شبكة نظرية أوسع قد تتجاوز حدود النظريات الأصلية وتتخذ طريقا خاصًا للتطور، فهكذا يتأسس المشروع العلمي، ويرتفع صرح العلم شيئا فشيئا، وطابقا فوق طابق. (قنصوة، 2007، صفحة 70)

5. الخروج من مشكلة العلوم الإجتماعية:

أن الأبستمولوجيا العلمية المعاصرة التي هي لا حتمية تعني انقلابا جذريا على الأبستمولوجيا الحديثة الكلاسيكية التي كانت حتمية، وأن هذا التحول الجذري قد أدى إلى تقارب كبير في المنهج بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، وإذا ما كان هذا التقارب قد بدأ أيضا بتحرك العاملين في مجال العلوم الرياضية، فإن الصياغة الجديدة لعلم الطبيعة والتي تتبلور الآن أمام أعيننا قد أَظْهَرَتْ أن النظم المعقدة التي تدرسها العلوم الإنسانية ليست أكثر تعقيدًا من النظم الطبيعية، لقد كانت المحاولات الأولى لإحداث التقارب بين مجالي المعرفة أسيرة العلم الطبيعي التقليدي بموضوعتيه وحتميته. (الخولي، 1989، صفحة 9)، من ثَمَّ كان تَعَثُّرها عبر الفجوة المذكورة آنفا، وكما أوضحنا الْتأمت، وبعد النسبية والكمومية الجديدة واللاتعيُّن والميكانيكا المُوحِية ... اتضح أن الظواهر الطبيعية ليست مطردة ولا متجانسة كما كان يُظَنُّ، وبعد الشوط الذي أحرزَتْه العلوم الإنسانية لا سيما في الدراسة الوصفية اتضح أن ظواهر العلوم الإنسانية ليست متغايرة كما كان يُظَنُّ، أي أن الطبيعة النوعية المعقدة لموضوع الدراسة لم تعد تَحُول بين العلوم الإنسانية وبين الاستفادة من إمكانات تقدمية كالمتاحة منطقيًا أمام العلوم الطبيعية، ولا العلاقة بين الباحث وموضوع البحث في العلوم الطبيعية بآصفي وأنقى وأبسط منها في العلوم الإنسانية.

هكذا تَسْتَوْعِب الأبستمولوجيا العلمية المعاصرة لمن شاء واستطاع استيعابها عامِلَي مشكلة العلوم الإنسانية، وتفتح الطريق للخروج منها، وتفتح الطريق لتحقيق درجة التقدم المنشودة فيها في المرحلة التفسيرية على ضوء الخاصية المنطقية المميزة للعلوم الطبيعية. (الخولي، 2012، صفحة 122) سوف نعرج الآن بالخاصية المنطقية على تفاعل العامِلَيْن معًا، والذي ينجم عنه افتقاد المرحلة التفسيرية لتقنين منطقي أَدَقّ، المردود إلى أن الباحث مثقل بالأيديولوجيات القومية وأحكام الحس المشترك، ما يجعل أنساق النظريات في العلوم الإنسانية مفتوحة الطرفين ولكي تتسع بل لكي تتأتى إمكانات حل مشكلة العلوم الإنسانية لا بد من الحيلولة دون تسرب أو اقتحام ما هو لاعِلْمِيٌّ إلى داخل نسق العلم، وإذا كانت المؤثرات الخارجية والأيديولوجية قد أَدَّت إلى تنازُع العلماء، فحالت دون تكامُل التفسيرات، ودون التآزر المتوازن بين التنظير والتجريب، فإن المنطق مُعَامِل موضوعي مشترك، كفيل بالجمع بين العلماء وتحقيق التآزر المنشود. (الخولي، 2012، صفحة 123)

6. خاتمة:

رغم التطور الكبير الذي عرفته العلوم الانسانية بفضل هذه المناهج لا يمكن الجزم بأنها وصلت الى الدقة و التحليل الموضوعي المعروف في العلوم الطبيعية، فلا تزال مشكلة الموضوعية مطروحة في التاريخ، كما أن المنهج السلوكي في علم النفس غير كاف لأن المظاهر الخارجية لا تعكس حقيقة الأحوال النفسية الداخلية، كذلك مبدأ التعميم لا يصدق كثيرا في علم الاجتماع فإذا كان سبب

الطلاق عند الزوجين هو عدم الإنجاب مثلا، فان نفس السبب قد يتواجد عند زوجين دون أن يتم الطلاق.

والخروج من مشكلة العلوم الإنسانية وحلها أن تطور العلوم الطبيعية، ساعد العلوم الإنسانية في البحث على تطوير نفسها وبالتالي البحث عن مناهج تتميز عن المنهج التجريبي وتكون مكيفة حسب خصوصيات كل ظاهرة. وهكذا تظل الإشكاليات المطروحة ليس بالضرورة تشكيكا في القيمة العلمية لهذه العلوم، وإنما يتعلق الأمر بنقاش إبستيمولوجي من شأنه أن يغني العلوم الإنسانية، ويدفع بها إلى تتوخى الدقة. لأن جميع الصعوبات تتمثل في طبيعة الظاهرة الإنسانية باعتبارها ظاهرة معقدة، متغيرة، وأن الإنسان يكون هو الدارس والمدروس في نفس الوقت.

7. قائمة المراجع:

1. إبراهيم عبد النبي، (1988). النظرية الاجتماعية والوعي الاجتماعي، دار الثقافة العربية، القاهرة.

2. الجابري عابد، (1982)، تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة، ط2، دار الطليعة، بيروت.

3. الخولي أسامة، (1989)، في مناهج البحث العلمي وحدة أم تنوع، مجلة عالم المعرفة الكويت، المجلد20(1)، الصفحات3-12.

4. الخولي يمنى، (2012)، مشكلة العلوم الانسانية تقنينها وامكانية حلها، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر.

5. جوناثان ري، وج.أو. أرمسون، (2013)، الموسوعة الفلسفية المختصرة، ط1، المركز القومي للترجمة، مصر، ترجمة فؤاد كامل، جلال العشرى، عبد الرشيد محمود، زكي محمود.

6. روبير بلانشي، (2003)، نظرية العلم الابستمولوجيا، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ترجمة محمود اليعقوبي.

7. روبير بلانشيه. (1986). نظرية المعرفة العلمية الابستمولوجيا، مطبوعات الجامعة الكويتية، الكويت، ترجمة حسن عبد الحميد.

8. ريكور بول، (1988)، الخيال الاجتماعي ومسألة الايديولوجيا واليوكوبيا، مجلة الدراسات الفلسفية التونسية، الصفحات

9. سايمنتن دين كيث، (1993)، العبقرية والابداع والقيادة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ترجمة عبد الحميد شاكر.

10. شعبان حسين، (1993)، برونشفيك وباشلار بين الفلسفة والعلم دراسة نقدية مقارنة، ط1، دار التنوير، بيروت.

11. صلاح قنصوة، (2007)، الموضوعية في العلوم الانسانية، دار التنوير، بيروت.

12. عزمي إسلام،(1984)، فلسفة العلوم الانسانية، مجلة عالم الفكر،المجلد15(3)، الصفحات249-268.

13. غاستون باشلار، (1982)، تكوين العقل العلمي، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ترجمة أحمد خليل.

14. غاستون باشلار، (1983)، الفكر العلمي الجديد،ط2، المؤسسة الجامعية للدراساتوالنشر، بيروت، ترجمة عادل العوا.

15. غاستون باشلار، (1985)، فلسفة الرفض، ط1، دار الحداثة، بيروت، ترجمة خليل أحمد خليل.

16.كركي حسين، (2010)، الابستمولوجيا في ميدان المعرفة، ط1، شبكة المعارف، بيروت.

17. وقيدي محمد، (1980)، ما هي الابستمولوجيا، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

18. ttp://dr-cheikha.logspot.com. (2011, 05 19). Récupéré sur ttp://dr-cheikha.logspot.com, le 19-05- 2011